من تراب الطريق! (٢٥٩)

الماكيافيلية الحسناء (*)

لعله لا يوجد كتاب حظى بالشهرة ككتاب " الأمير " الذى وضعه " ماكيافيلى " فى القرن السادس عشر .. تعرف الكتاب من قائمة أشهر قرائه بأكثر مما قد تعرفه من عنوانه .. لم ينكر أحد أن " طغاة " كل عصر وجدوا فى مادته بغيتهم، علت بالبعض، وهوت بالبعض . أورد روبرت . ب . دوانز فى مؤلفه : " كتب غيرت العالم " الذى ترجمه أمين سلامة لهيئة الكتاب سنة ١٩٧٧.. أن قائمة الطغاة القراء الذين أعجبهم الكتاب شملت فيمن شملت : الإمبراطور شارل الخامس، وأوليفر كرومويل الذى اعتنق مبادئه وطبقها فى حكومة الكومنولث، وكلاً من هنرى الثالث وهنرى الرابع الفرنسيين، وساعَدَ فريدريك العظيم على صياغة سياسة روسيا، وجعل منه لويس الرابع عشر " طاقيته الليلية المفضلة "، ووجدت منه نسخة معلق بحواشيها فى عربة نابليون فى ووترلو، واستمد منه نابليون الثالث معظم أفكاره، وكان بسمارك تلميذا مخلصا لما جاء فيه، واحتفظ به أدولف هتلر فى مخدعه، واعتبره موسولينى دليله السياسى الرائع !

من اللافت أن تبقى الماكيافيلية التى بشر بها كتاب " الأمير " - عالقة فى الأذهان لما يزيد على الأربعة قرون، يتقدمها شعار كثر ترديده لمن يعرف ولمن لا يعرف : " النهاية أو الغاية تبرر الوسيلة " .. أو " تخلق الملاءمة السياسية " .. لم ينشر الكتاب إلاّ سنة ١٥٣٢ م بعد وفاة

(*) المال١٣/٥/٢٠٠٩

مؤلفه بخمسة أعوام وإن سبقت مخطوطته إلى طغاة عصره . أفرغ فيه المؤلف الإيطالى خلاصة تجاربه فى خدمة الحكومة فى فلورنسا ثم فى توسكانى ثم فى روما ثم فى ما وراء جبال الألب، وتعرف فيها على كثيرين من أعلام عصره، واتخذ بطلا للكتاب القائد القدير " سيزار بورجيا " ابن البابا ألكسندر السادس .. أوحت بالكتاب آمال ماكيافيلى فى أمة إيطالية موحدة ارتأى فيها صالح الدولة، ولكن على مستويات أخلاقية تتعامل تعاملا مختلفا مع الحياة، فحواها أنه من اللائق بالسياسى أن يقوم لصالح الشعب (؟!) بأعمال العنف والخداع التى تستحق اللوم وتوصف فى المعاملات الخاصة بالإجرام !

على مدار القرون الأربعة ظل كتاب " الأمير " ضروريا للطغاة، لا يعلمهم فقط كيف يحصلون على السلطة، ولكن أيضا كيف يحتفظون بها .. ولكن كيف ؟! تختلف النصائح أو الوصايا تبعا لمناطق الحكم الأصلية أو المحتلة، ولكن تظهر فى هذه وتلك معتقدات ماكيافيلى .. طباع الجماهير متقلبة، ومن السهل إغراؤها بقبول أى شىء، وإن صعب ثباتها على هذا الإغراء، لذا فإن من لم يؤمن من الناس طوعا، وجب إجبارهم على الإيمان بالقوة !!

لذلك فالقائد الفذ القوى البأس : "سيزار بورجيا"، يستحق التقريظ والتمجيد .. يقدمه ماكيافيلى كنموذج واجب المحاكاة .. المهم أن يتغلب الحاكم سواء بالقوة أو بالغش، وأن يجعل نفسه محبوبا ومرهوبا فى آن واحد . أن يفرض مسيرة الجنود ورءه واحترامهم له، وأن يستأصل شأفة كل من كان ذا قوة أو عقل يمكنانه من إلحاق الأذى به، وأن يكون قاسيا وخيّرا فى نفس الوقت .. يحطم العسكرية غير الوفية ويخلق بدلها عسكرية جديدة، ويحافظ على صداقة الأمراء وذوى الحول والقوة بطريقة تضمن مساعدتهم إياه .

من المبادئ الماكيافيلية أنه يجب الإسراع بإنزال الأضرار بضربة واحدة، بدلا من الاضطرار إلى تجديد إيقاعها يوميا، وليسهل بعد ذلك

طمأنة عقول الناس واكتسابهم بالمنافع . ولا ينبغى للأمير أو الحاكم أن يجرى أو يعيش كما يجرى الناس ويعيشون . من الضرورى له إذا أراد المحافظة على مركزه أن يتعلم كيف يتصف بشىء آخر غير الطيبة، وأن يستعمل الطيبة أو لا يستعملها حسب مقتضيات الأحوال . ولأنه من المستحيل أن يتحلى الأمير الحاكم بكل المناقب، توجب عليه أن يكون حاذقاً بما فيه الكفاية بحيث يعرف كيف يتحاشى مثالب الرذائل التى تهدد حكمه !

ليس مهما ماذا تنفق، ولكن الأهم أن تنفق بسخاء مما لا يخصك أو يخص رعاياك .. ما يضرك هو أن تنفق مما يخصك، أما القسوة فهى محمودة ما دامت إحدى وسائل الاحتفاظ باتحاد الرعايا وطاعتهم، فقمع الفتنة بإجراءات فورية أكثر رحمة من ترك الأمور تجرى فى أعنتها، فينتج عن ذلك الاغتصاب وسفك الدماء !

ولكن ماذا هو الأفضل للأمير أو الحاكم، أن يُحَب أكثر مما يُخَاف، أم أن يُخَاف أكثر مما يُحَب ؟. وهذان نقيضان قلما يجتمعان معا، لذا وجب الاختيار بينهما. من الأكثر أمنا - فيما يقول ماكيافيلى - أن يُخَاف الأمير أكثر مما يُحَب،إذ من المؤكد أن عموم الناس ناكرون للجميل ومتقلبون وخائنون وجشعون يقفون إلى جانب من فى وسعه أن يغدق عليهم المنافع، ويجافون غيره، وهم على استعداد للتضحية مادام الخطر بعيدًا عن التضحية بممتلكاتهم وحياتهم وأولادهم، فإذا جاء وقت الجد أداروا ظهورهم!

أبرز ما استحق الشجب والاحتقار والإدانة فى كتاب " الأمير " - ما ورد بالباب (١٨) من أنه وإن كانت المحافظة على الثقة جديرة بالثناء، إلاَّ أن الخداع والنفاق والزور ضرورة مغفورة من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية . ومادام معظم الناس خائبين لا يثقون، وجب فى المقابل عدم الثقة بهم . والطريقة المثلى أن يمزج الأمير أو الحاكم فى استخدام القوة بين المناسبة للبشر وتلك المناسبة للوحوش، وأن يختار من بين الوحوش الأسد والثعلب، ثم يجب ألا ينسى أن يقوم بنفسه بتوزيع الهدايا والهبات،

وأن يترك للمرءوسين مسئولية توقيع العقاب أو التصرف فى كل ما يثير عدم الرضا أو الحنق العام .. هنالـــك ســـوف تبدو الماكيافيلية جميلـــة " حسناء " .. مقبولة مرغوبة فى عيون الناس ! ..